يُسبقوا بنوع من الثقافة العامة فى الامة حتى تستطيع ان تُفهم قادتها و آراءهم، فيأتى هؤلاء القادة فيكوّنون ارادة عامة للامة، ويؤلفون بين اتجاهاتها ويكوّنون منها وحدة

ومما نأسف له أن مجهودات كبيرة بذلت فى ترقية الثقافة العقلية، وبرامج كثيرة وضعت فى تعميم التربية العقلية وفى تكوين الرأى العام، ولكن لم توضع برامج لتربية الذوق العام. ولا بذل مجهود فى ترقيته ورفع مستواه، فكان لنا زعماء سياسيون وزعماء عقليون ولكن لم يكن لنا زعماء ذوقيون

وفى ظنى أن الذين يبحثون فى ترقية الفنون عامة من موسيقى ونقش وتصوير وادب مخطئون كل الخطأ، لانهم يحاولون أن يصلحوا النتائج من غير أن يصلحوا المقدمات، فليس الفنان فى الامة الا صدى لذوقها العام، فاذا صح الذوق صح الفن والا فلا ليس الفن والادب من جنس النباتات التى تنبت من تلقاء نفسها. ولا هو مما يظهر مصادفة واتفاقا وانما هو نتيجة لازمة لعوامل طبيعية سأحاول ان أبينها فى مقال تال.

احمد امين

المجلة الجديدة

لصاحبها ومحررها سلامه موسى

هى مجلة التجديد والفكر الحر والدعوة الى الحضارة الحديثة والوطنية الاقتصادية والثقافة العلمية ومكافحة التقاليد المذلة للمرأة

اقرأ فى عدد ديسمبر مقالات لبرتراند رسل وه. ج. ولز واندريه موروا وسبنجلر والدس هكسلى وبرنارد شو

الجديد

فى الآراء الاقتصادية والاجتماعية والثقافية

قيمة الاشتراك { فى مصر اربعون قرشا / « الخارج ١٢ شلنا

وللمشترك ثلاثة كتب هدية فى العام

العنوان: ١٢ شارع نوبار بمصر

— ٤ —

محمد بن القاسم الثقفى

٧٣ — ٩٦ هـ

للاستاذ عبد الحميد العبادى

لو أن من يدرس تاريخ الأمة العربية فتش فى ثنايا هذا التاريخ عن شخصية تتمثل فيها سجايا تلك الأمة الكبيرة وعناصر قوتها لما وجد أجمع لتلك السجايا وهذه العناصر من شخصية الفتى الشهيد والفاتح العظيم، والشاعر الحساس، محمد بن القاسم الثقفى الذى شرع فى غزو السند فى السابعة عشرة من عمره وأتمه ولما يتجاوز الثالثة والعشرين فادخل بذلك فى الهند الثقافة الأسلامية التى يدين بها فى الوقت الحاضر زهاء ثمانين مليوناً من أهلها. انها شخصية تجمع الى فتاء السن حنكة الكهولة، والى خشونة الجندى رقة الشاعر والى الحرص على الدنيا زهد الفيلسوف وطمأنينة الحكيم.. وكل هذه صفات اتصف بها العرب فى نهضتهم التاريخية الكبرى التى رجت العالم القديم فنبهته من سباته ورسمت للتاريخ مجرى جديداً!

وهو محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم بن أبى عقيل الثقفى، فهو من ثقيف المشهورة فى الجاهلية والاسلام بقوة الدهاء وسعة الحيلة ومضاء العزيمة، ثم هو ابن عم الحجاج أمير العراق ورجل الدولة الأسلامية فى الربع الأخير من القرن الأول الهجرى. يلتقى نسبهما فى الحكم بن أبى عقيل. ولد حوالى سنة ٧٣ هـ، ونقع الحوادث مثار وريح الفتن نكباء، والسيوف يتجاوب صليلها فى فارس والعراق والحجاز وأفريقية، فجعل غلامنا يتنفس فى جو مكفهر عابس ولقف صناعة الحرب سماعا وعيانا، ثم شاء ربك رحمة منه بالناس أن يكون الى جانب هذه الحياة القلقة المضطربة الخائفة حياة أخرى آمنة هادئة هى حياة الأدب الذى يتمثل فى الشعر الغنائى الرقيق المأثور عن ابن أبى ربيعة وجميل وكثير والنميرى وغيرهم من شعراء ذلك الزمان. فعشا. نظر الفتى الثقفى الحائر الى ذلك النور المشرق. فجاءه واهتدى به، وهفت نفسه العطشى الى ذلك المورد العذب فورده وارتوى منه، وبذلك اعتدل مزاجه، ورقت حواشى نفسه وأصبح

وهو فى السابعة عشرة من عمره أشرف ثقفى فى زمانه كما يقول صاحب الأغانى ، وأقبل الحجاج وهو هو فى نقد الرجال وتمييز الكفايات يعقد به آمالا كباراً ، ويرشحه على حداثة سنه للأمر الجليل بعد الأمر الجليل .

* * *

لم يكد ينتصف العقد التاسع من القرن الأول الهجرى حتى كانت الفتن التى صدعت وحدة الدولة الأسلامية من بعد معاوية قد ركدت ريحها ، فانتهت ثورة ابن الزبير بالحجاز ، وكسرت شوكة الخوارج بفارس ، وسكنت العاصفة الهوجاء التى أثارها ابن الاشعث بالعراق . هنالك عاود العرب حبهم القديم للفتح والتغلب ، وكان الحجاج واضع سياسة ذلك الاتجاه الجديد ومنفذها ، فغزا قتيبة بن مسلم ما وراء النهر وأوغل فيها ، وتوطد سلطان الدولة ببلاد عمان ، وغزا موسى بن نصير المغرب وقرع أبواب الأندلس نفسها . وقد أراد الحجاج أن تأخذ ثقيف بنصيبها من شرف هذه الفتوح الجسام ، فأغزى ابن عمه محمد بن القاسم السند التى هى مدخل ذلك العالم الزاخر بالناس والحافل بالخيرات ، والذى يسمى بلاد الهند

الحق ان الحجاج لم يبتكر سياسة غزو الهند فقد عرف هذه البلاد عرب شرقى الجزيرة منذ الجاهلية ، وطالما ركبوا البحر الى شواطئها مستبضعين وتجاراً ، فلما قامت الدولة الاسلامية طمعوا فى غزوها وتملكها ، يروى صاحب فتوح البلدان « ان عمر بن الخطاب ولى عثمان بن ابى العاص الثقفى البحرين وعمان سنة ١٥ هـ فوجه أخاه الحكم الى البحرين ومضى الى عمان » فأقطع جيشا الى تانه (قريب من موقع بومباى الحاضرة) فلما رجع الجيش كتب الى عمر يعلمه ، فكتب اليه عمر : ياأخا ثقيف حملت دودا على عود ، وانى أحلف بالله ان لو أصيبوا لأخذت من قومك مثلهم » . وتتابعت غارات عرب البحرين من عبد القيس وغيرها على شواطىء الهند وجزائرها وخاصة جزيرة سيلان التى كان يقال لها اذ ذاك « جزيرة الياقوت » لحسن وجوه نسائها ، فمن هؤلاء العرب من أفلح فى المقام بها ومنهم من عاد الى بلاده وملء يديه السبى الرائع والمغنم الوافر . هذا من ناحية العرب ، اما من ناحية الهند انفسهم فقد « هاجرت منهم فى الجاهلية طوائف الى رأس الخليج الفارسى وخضعت للدولة الفارسية القديمة ، فلما مصرت البصرة نزلوها وحالفوا من بها من العرب .

فلما كان زمن الحجاج أغزى عماله على مكران ثغر السند فكلهم كان ينكب او يقتل ، وأرض السند عبارة عن حوض نهر السند العظيم تنزلها قبائل عديدة قوية نذكر منها الزط والسيابجة والميد والبرهة . وكان بالسند بلدان كثيرة منتشرة فى اهضام الأودية ورءوس الجبال . منها الديبل ، وكانت ثغر السند قبل كراتشى الحاضرة وبرهمنا باذ وراور والملتان . وكانت هذه البلدان قوية غنية بمعابدها البوذية القديمة وخاصة معبد الملتان . قال البلاذرى « وكان بد الملتان تهدى اليه الأموال ، وتنذر له النذور ، ويحج اليه السند ، ويطوفون به ويحلقون رءوسهم ولحاهم عنده ، ويزعمون ان صنما فيه هو ايوب النبى صلعم » اما من الناحية السياسية فقد كان يتوزع بلدان السند وقبائلهم عدة ملوك متقاطعى الكلمة مختلفى الأهواء وكان اقواهم سلطانا إبان غزو العرب للسند ملك يقال له داهر ، وهو الذى أشجى قواد الحجاج وأذاقهم مرارة الهزيمة المرة بعد المرة . والطريف ان مصرع هؤلاء القواد لم يحمل الحجاج على الجد فى قتال داهر بمقدار ماحمله عليه استغاثة أمرأة عربية اعتدى عليها وعلى نسوة عربيات كن معها بعض قراصين البحر من اهل السند التابعين لداهر .

وذلك ان ملك جزيرة الياقوت فيما يروى البلاذرى ، أراد التقرب من الحجاج فأهدى اليه نسوة ولدن فى بلاده مسلمات ومات آباؤهن وكانوا تجارا ، فعرض للسفينة التى كن فيها قراصين من ميد الديبل فاخذوا السفينة بما فيها ، فنادت امرأة منهن من بنى يربوع : ياحجاج ! وبلغ الحجاج ذلك ، فقال يالبيك ! وارسل من فوره الى داهر يسأله تخلية النسوة . فأجاب بانه انما اخذهن لصوص لاقدرة له عليهم . فاغزى الحجاج اثنين من عماله ثغر السند فكلاهما قتل ، فاهتاج الحجاج وتجرد لقتال داهر ، وكان قد أعد محمد بن القاسم لغزو الرى فلما حدث ما حدث على حدود السند رأى فى هذا الشاب من برأب الصدع ويدرك الثأر ، فرده عن غزو الرى وعقد له على مكران وثغر السند ، وأمره أن يقيم بشيراز حتى توافيه القوة التى أخذ يعدها لقتال داهر .

كانت هذه القوة مؤلفة من جيش واسطول ، اما الجيش فكانت عدته زهاء عشرين الف مقاتل منهم ستة آلاف فارس من جند الشام الذين كانوا عدة الدولة الاموية ومعولها والذين وطأوا للامويين اكناف ملكهم شرقا وغربا وشمالا وجنوبا . واما الاسطول فكان يحمل المشاة والمؤن وعدد الحرب الثقيلة . ومن هذه خمس مجانيق ضخام ، يقال لاكبرها (العروس) ويروى البلاذرى انه كان يمدفيها خمسمائة رجل . وبالغ الحجاج على عادته فى اعداد الجيش حتى أنه » . . . . جهزه بكل ما احتاج اليه من الخيوط والمسال وعمد الى القطن المحلوج فنقع فى الخل الخمر الحاذق ثم جفف فى الظل ، فقال اذا صرتم الى السند فان الخل بها ضيق فانقعوا هذا القطن

ثم اطبخوا به واصطبغوا » ثم تقدم الى محمد الا يقطع عنه اخباره بحيث يختلف البريد بينهما مرة كل ثلاثة أيام .

***

خرج محمد بن القاسم بجيشه من شيراز عام سنة ٩٠ هـ فسار مشرقا متبعاً ساحل البحر يطوى الحزون والسهول ، ويجوب المهامه والقفار ، ويحدوه ما يحدو الشباب الحى من حب للمجد وتعلق باسباب المعالى ، فتغلب على صحارى كرمان ومكران ، وبلغ الديبل سالما . ولم يكد يحط رحاله حتى كان الأسطول قد وافاه بها . فشرع من فوره فى مهاجمة المدينة . قال صاحب فتوح البلدان « فقدم الديبل يوم جمعة ووافته سفن كان حمل فيها الرجال والسلاح والاداة فخندق حين نزل الديبل وركزت الرماح على الخندق ونشرت الاعلام وأنزل الناس على راياتهم ونصب منجنيقاً تعرف بالعروس كان يمد فيها خمسمائة رجل . وكان بالديبل (بد) عظيم عليه دقل طويل وعلى الدقل (سهم السفينة) راية حمراء اذا هبت الريح أطافت بالمدينة وكانت تدور . . . . . وكانت كتب الحجاج ترد على محمد وكتب محمد ترد عليه بصفة ما قبله واستطلاع رأيه فيما يعمل به فى كل ثلاثة ايام . فورد على محمد من الحجاج كتاب ان انصب العروس واقصر منها قامة ، ولتكن مما يلى المشرق ، ثم ادع صاحبها فمره ان يقصد برميته الدقل الذى وصفت لى ، فرمى الدقل فكسر ، فاشتد طرة (جزع) الكفر من ذلك . ثم ان محمداً ناهضهم وقد خرجوا اليه فهزمهم حتى ردهم وامر بالسلاليم فوضعت وصعد عليها الرجال . . . ففتحت عنوة . . . . وهرب عامل داهر عنها . . . . واختط محمد للمسلمين بها وبنى مسجداً وانزلها اربعة آلاف ، » ثم سار محمد مصعداً مع النهر يريد داهر ، وعظم جيشه فاستولى على مدينة الرور صلحاً . وانضم اليه على اثر ذلك اربعة آلاف من الزط ، وصار كثير من قبائل السند عونا له فى حربه مع داهر . ثم عبر نهر مهران والتقى بداهر وجيشه . وكان على فيل عظيم ومن حوله الجند على فيلة تنذر محمداً وجيشه بفتك ذريع ، ولكن محمدا اتقى شر الفيلة بقذائف النفط الملتهب يرميها بها فهاجت واحترقت هوادجها بمن فيها من الجند ، وانتشب بين الفريقين قتال هائل انجلى عن قتل داهر وتمزق جيشه ، وتراجع فلوله الى مدينة برهمناباذ . واقتفى محمد اثر تلك الفلول فاستولى على مدينة راور فبرهمنا باذ نفسها ، ومن ثم زحف الى مدينة الرور فحاصرها اشهرا ثم دانت له على ان يحقن دماء أهلها وألا يعرض لبدهم ، وان يؤدوا اليه الخراج . وقد وفى لهم بشرطهم وبنى بالمدينة مسجدا . ثم قطع نهر بياس الى الملتان اعظم بلدان السند العليا فامتنعت عليه أول الأمر ثم استولى عليها بمالأة رجل من اهلها له . ووضع يده على اموال جسيمة كانت بمعبدها البوذى .

كانت الملتان اقصى ماوصل اليه ابن القاسم من ناحية الشمال ، قال البلاذرى : « ونظر الحجاج فاذا هو قد انفق على محمد بن القاسم ستين الف الف درهم ، ووجد ماحمل اليه عشرين ومائة الف الف ، فقال : شفينا غيظنا وادركنا ثأرنا وازددنا ستين الف الف درهم ورأس داهر »

اخذت الملتان سنة ٩٥ هـ وعلى اثر ذلك اتت محمداً وفاة الحجاج فقفل راجعا نحو الجنوب مستولياً فى طريقه على مدن الملوك آخرين غير داهر ، وكان آخر ما فتح مدينة يقال لها (الكيرج) استولى عليها عنوة سنة ٩٦ هـ ثم اتاه نعى الخليفة الوليد بن عبد الملك وولاية اخيه سليمان ، فلم يبرح تلك المدينة ، وقلب له الدهر من ذلك الوقت ظهر المجن ، واخذ نجمه فى الأفول

***

لاشك أن الحجاج كان موفقا عند ما عهد الى ذلك الشاب قيادة تلك الحملة الخطيرة . فان محمدا بحداثة سنه وصدق فروسيته قد ملك زمام اصحابه . فلا نسمع ان احداً منهم حدثته نفسه بخلاف عليه او عصيان له . ثم انه بهذه الخلال نفسها وبرجاحة عقله وسعة حلمه اجتذب قلوب السند انفسهم ، فقد قارنوا بينه وبين ملوكهم المترفين المتجبرين المتخاذلين فلم يتمالك كثير من قبائلهم أن اعطاه الطاعة وأخذ جانبه فى الحرب كما سبق القول . ويروى انه عندما شرط عليه اهل مدينة الرور الا يقرب بدهم وفى لهم بذلك وقال : « ما البد الا ككنائس النصارى واليهود وبيوت نيران المجوس . » وكانت حكومته اياهم عادلة رفيقة اذا قيست بحكومة ملوكهم وامرائهم ، فقد تقدم الى عماله بهذه النصيحة : « أنصفوا الناس من انفسكم ، واذا كانت قسمة فاقسموا بالسوية ، وراعوا فى فرض الخراج مقدرة الناس على ادائه ولا تختلفوا ولا تنازعوا فتشقى بكم البلاد . ثم انه كان مدركا كل الادراك ان عليه واجبين عظيمين : عليه ان ينشر فى البلدان التى فتحها الثقافة الاسلامية ، وان يصل بين الشرق والغرب الاسلاميين ، من اجل ذلك كان اذا فتح مدينة أنزلها بعض اصحابه ، وبنى بها مسجدا ، ومن اجل ذلك نقل طوائف من الزط والسيابجة الى العراق . فانزل الحجاج بعضهم كورة كسكر بفارس ، ووجه بقيتهم الى الخليفة ، فانزلهم انطاكية وسواحل الشام لينتفع بخبرتهم البحرية فى قتال الروم ، كذلك ارسل الى الحجاج فيلة سميت ببعضها مشرعة الفيل التى كانت بواسط .

كما بعث اليه بآلاف من الجواميس السندية ، فاطلق الحجاج بعضها في آجام كسكر وكور دجلة ، وبعث كثيرا منها الى الخليفة فاطلقها في الآجام التي بين انطاكية والمصيصة ، واتقى بها سباع تلك الآجام وكانت قد كثرت وأخافت السابلة . وقد تمت هذه الماشية بالعراق على مر الزمن حتى اصبحت من اسباب ثروته الاقتصادية في الوقت الحاضر .

تلك غزوة محمد بن القاسم للسند . انها لاشك تذكرنا بغزو الاسكندر المقدوني لتلك البلاد نفسها في أخريات القرن الرابع قبل الميلاد . فالغزوتان تتشابهان من عدة وجوه ، تتشابهان من حيث ان كلتيهما برية بحرية الى حد بعيد ، ومن حيث حداثة كلا الفاتحين وكفايته ، ومن حيث ان كليهما نهج في نشر ثقافته بالسند نفس المنهج الذي نهجه الآخر ، ومن حيث ان كليهما كان يهدي الى استاذه طرفا من طرف فتوحه ويراسله مستطلعا رأيه ، فالفاتح المقدوني كان يهدي الى ارسطو ويراسله ، والفاتح العربي كان يهدي الى الحجاج ويراسله مصدراً في بعض المواقف عن رأيه . ولوان أهل السند الذين غزاهم ابن القاسم ، والذين قد يكون منهم من يدين بشرعة التناسخ ذكروا تاريخ بلادهم القديم فربما رأوا في الفاتح العربي الحديث انبعاث روح الفاتح المقدوني القديم .

* * *

وبعد فماذا كان مصير ذلك الفاتح العظيم ؟ لقد جوزي جزاء سنمار وصار الى شر مصير فقد نكبه الخليفة سليمان بن عبد الملك نكبة كان فيها تلف مهجته وبوار نفسه . والمصادر القديمة مختلفة في تعليل تلك النكبة : فالمصادر الفارسية ، وهي حديثة نسبيا وغير موثوق بها تزعم ان بنات داهر أفضين الى الخليفة بان ابن القاسم عبث بهن ، فاضطرم الخليفة غيظا وأمر بمحمد فوضع في أديم بقرة ثم خيط عليه الأديم وحمل الى دمشق ففاضت روحه بالطريق ، فلما بلغ بنات داهر مصرع الفتى استشعرن الندم وقلن انهن تجنين على ابن القاسم انتقاما ممن قتل اباهن وثل عرشه ، فاشتد غضب الخليفة عند ذلك وأمر بهن فقتلن شر قتلة : اما المصادر العربية وهي أقدم من المصادر الفارسية وأوثق فلا تذكر شيئا من أمر النسوة ، ويؤخذ منها ان الخليفة سليمان بن عبد الملك كان مضطغنا على الحجاج لانه كان قد زين للخليفة الوليد ابن عبد الملك خلع سليمان من ولاية العهد : اما وقد فارق الحجاج هذه الدنيا فقد رأى سليمان ان يشفي غيظه من أقربائه متأثرا في ذلك بنظام الثأر عند العرب . وقد اذكى نار الحقد الموجدة في صدره رجلان كلاهما قد وتره الحجاج و كلاهما كان متأثرا بالعصبية القبلية بين قيس واليمن : احدهما يزيد ابن المهلب وكان اثيرا مكينا لدى الخليفة ، والآخر صالح بن عبد الرحمن وقد ولاه سليمان خراج العراق

عزل محمد عن السند وولى مكانه يزيد بن ابي كبشة السكسكي فأخذ محمدا وقيده وسيره الى العراق مع رجل من بني المهلب على حال حركت قلوب اهل السند فبكوا عليه وصوره اهل الكبرج بمدينتهم التي كان منها شخوصه ، وقد تلقى محمد المحنة صابرا محتسبا ولم يكن في محنته اقل شجاعة رصبرا وأنفة منه وقت الحرب وحين البأس والغريب انه على اخلاص اصحابه له وعطف السند عليه لم تحدثه نفسه بالخلاف والانتقاض . والظاهر ان ايقن ان قد ادى واجبه وان الحياة اصبحت بعد ذلك لغوا وفضولا لاطائل فيه . وقد جعل يسري عن نفسه بمقطوعات من الشعر ضمنها آلامه وخواطر نفسه ، فمن ذلك قوله مشيرا الى انه لو اراد الثورة لشق على اعدائه نهضه ،

ولو كنت اجمعت القرار لوطئت
اناث اعدت للوغى وذكور
وما دخلت خيل السكاسك ارضنا
ولا كان من عك على امير
ولا كنت للعبد المزوني تابعاً
فيالك دهر بالكرام عثور !

ولما صار الى واسط حبسه صالح بن عبد الرحمن فقال :

فلئن ثويت بواسط وبأرضها
رهن الحديد مكبلا مغلولا
فلرب قينة فارس قد رعتها
ولرب قرن قد تركت قتيلا

وعذبه صالح في رجال من اقرباء الحجاج حتى قتلهم ، فطفق الشعراء يرثون محمدا و يذكرون فضائله ، فمن ذلك قول بعضهم :

ان المروءة والسماحة والندى
لمحمد بن القاسم بن محمد
ساس الجيوش لسبع عشرة حجة
يا قرب ذلك سؤددا من مولد !

وقال آخر

ساس الجيوش لسبع عشرة حجة
ولداته عن ذاك في اشغال

تلك خاتمة فتى فتيان العرب وسيد فرسانهم غير مدافع . فمن مبلغ مسلمي الارض عامة والهند خاصة ان الدوحة الاسلامية العالية التي اظلت بلاد الهند طوال العصور الوسطى ، انما كانت غرس ذلك الفتى العربي النبيل ؟ فليذكر ذلك الذاكرون فقد تبل الذكرى رفات ذلك الشهيد في قبره ، بعد ان عدم في حياته من يحمد بلاءه او يرحم شبابه ؟